

الانتقاد الوجداني في السمر ومعنى الالتزام الاشتراكي

بقلم محمد الجزيري

عملية التفاعل الى تسطير لفظي لكلمات موزونة ...
حينذاك تتحول وظيفة مشاعره الى خلق حرفي او صياغة
حرفية لكائناته (الكلمات) ...

اذ ذاك تفتقد القصيدة الى لمساتها الفنية الصادقة
وتصبح (محض) قطعة جمالية ، شكلا .. في حين ان
الاشكال تولد الاشكال في الصياغات الصادقة ابان اضواء
الشاعر على مادة مضامينه ، ومن ثم وسائله التكنيكية
وملكته او ثروته اللغوية .. الخ .. الخ ..

الانسان الشاعر ، ابان مخاض اللحظات الانتقادية ،
يعيش انفعالا خاصا عنيفا سادرا بعنفه او يسيل نعومة
وشفافية او يفرق بالالم حتى الاعماق . او فرحا سعيدا
كطفل .. وفي كل هذه الاشكال الانفعالية ، يعلو لحن
الاغنية بتناغم خاص صادق يكون الشاعر فيه الملتقط
والمعطي ، عبر الموحى ، والمتفاعل .

وهنا امام هذا الحشد المشاعري المتلاطم ، لا يمكن
ان يقال للشاعر : لم أنجبت مشاعرك هذا اللون او هذا
المضمون ؟ . انها عملية داخلية معقدة .. تنبع من خلال
تعانق وترافق للملاحظات عديدة ، وتلونها بمشاعر خالصة
الاثارة ومن ثم انعكاسها من واقع شريحة اجتماعية معينة
عبر عملية صلب وجداني كامل التعذيب .. والشاعر
الفنان هنا لا يمكن ان يتحكم بمشاعره ليصوغ قصيدة بل
القصيدة هي ولادة طبيعية لزحمة مشاعر ومؤثرات
عديدة ..

وحتى الشاعر والكاتب الاشتراكي ، لا يمكن ان
يتخطى حدود مشاعره الذاتية ورؤاه الخاصة للاحداث .
ليكتب في لحظة شعور معين عن شعور اخر ولحظة اخرى
لم يعيشها بصدق او يتفاعل معها ... بدعوى ان الواجب
يحتّم عليه مثلا ان يكتب عن (بنزرت) ولو كانت القصيدة
- مثلا - بمستوى المقالة السياسية العابرة .

يقول ارنست فيشر :

ان الفنان (او الشاعر) الاشتراكي يتبنى وجهة
النظر التاريخية للطبقات العاملة لكن ليس معنى ذلك انه
ملتزم بالدفاع في انتاجه عن اي عمل او قرار يتخذه اي
حزب او شخصية تمثل هذه الطبقات العاملة . انه يرى
في الطبقة العاملة القوة الحاسمة لكنها ليست القوة
الوحيدة - اللازمة لدرح الرأسمالية ولتطور قوى الانتاج

((ان المادة والتقنية التمرسية العملية تؤلف

- بدهيا - جزءا من المحتوى العملي والاجتماعي للفن .
والذي يلوح انه يزول مع زوال العهد الحرفي للفن ، انما
هو اللاوعي السعيد في سير تطور الاشكال وابداعها بدءا
من المادة المصنوعة . فالفن اليوم مقدر عليه ان يناط
بالوعي وهذه سمة عصر جديد بكامله ، ((فالاشكال)) تولد
اكثر فاكثر ولادة واعية ، ويكون هذا بدءا من المحتوى التام
وليس من ((المادة المأخوذة بمعزل عن سائر العناصر))
ان المفهوم او رؤيا الطبيعة كما يظهران في الاثارة
الفنية يجب ان يجدا مكانيهما في المحتوى النشاطي
العملي))

من هنا فان التصعيد الوجداني ، هو حصيله
تراكمات مشاعرية عدة ، تتكون في ظروف مختلفة وتحت
تأثير محصلة قوى عديدة ، تتصاعد وجدانات الانسان
الشاعر عبر ترسبها في الاعماق وتحركها ونموها في مخاض
زمني معين حتى تبلغ درجة من النضج والتفتح والنمو
والاتساع ، تكون به قد وصلت درجة الانتقاد المطلوب ..
اذ ذلك لا يمكن الا ان تنسكب من اعماق الشاعر ، شعرا
يعبر عن مجمل هذه التراكمات والمؤثرات وانعكاساتها ..
وهذا التوالد والتواجد والتصاعد ثم الانتقاد .. هو نتاج
عمليات سيكولوجية من خلال مؤثرات مادية وروحية
وفكرية تجد ثغرة الانطلاق في لحظة التفاعل التام وفي
لحظة تحريك زمني وايحائي واثاري .. فتنسكب .. وقد
تكون لحظة تذكير ، ورصد او لحظة استعادة او منلوج
داخلي في اللاشعور ..

اذ ذلك اما ان يقتنص الشاعر هذه الارهاصات في
لحظة الانتقاد الوجداني ، ويسجلها واما انها تنقلت منه
فتهرب ..

ولكن هل ان هذا الانتقاد ، هو وليد حركة عفوية من
الحياة او هو تجمع حياتي عاش تفاعلا في داخل الانسان ؟
وحمل الشاعر مادته وتقنيته من خلال تمرسه
وعميلته ، ليضفي على مادة التأثير محتوى عمليا واجتماعيا
يعني انه وضع مشاعره بمستوى جمالي تكنيكية عبر مرحلة
الانهيار الشعري .. فالشاعر ، هنا ، ليس حرفيا قطعيا ..
اما اذا تجاوز مرحلة الانتقاد ، ولم يستفد منها ، من ثم
جلس وراء مكتبه وراح يكتب شعرا .. حينذاك تتحول

المادية والروحانية تطورا غير محدود من أجل تحرير شخصية الانسان .. اي بعبارة اخرى .. انه يندمج بشخصه في المجتمع الاشتراكي النامي اندماجا كاملا .. وبعنفادي ان الشاعر في لحظة انتقاده الوجداني يضع مشاعره واحاسيسه مع القضية التي آمن بها ان كان ابنا بارا لهذه القضية واعيا لمهامه فيها ودوره كإنسان ذي وظيفة اجتماعية من خلال كلماته وحروفه .. وان كان متماسك الثقافة وغير مهزوز فكريا ، فهو يملك ، اذن ، سلاحه الفكري ، ويعتمد على قاعدة ثقافية واسعة ومن خلال هذا المجموع الفكري يوجهه الوجهة التي تحصل صياغاته الشعرية بها مجد الانسان ، شرف الغاية ، وعمق الاحساس ، بالضرورة ، بكل مقتضيات واجب الانسان الشاعر الاشتراكي الواعي لمهام الرحلة . اذن لا يمكن قطعا ، وليس من حق أي ناقد ان يحدد حرية الفنان الشاعر في اختيار الصيغة الانسانية لمضامينه الانسانية في ذات الوقت الذي يحدد هو طبيعة الموضوع السدي يناوله من خلال مؤثرات الحياة والطبيعة والسياسة .

– وهذه حتمية – يضع الصيغة المناسبة له ... دون الزام جبري بان يصوغ حروفه بالشكل التالي او بالقيمة الجمالية التالية ..

اذن .. لا يمكن من وجهة نظري طرح السؤال التالي على الشاعر : لماذا لم تنجب شكلا اخر في اللحظة الانتقادية المعنية لتعبر عن المضمون المعين ؟ . اقول ان الشاعر ليس وليد تلك اللحظة الانتقادية ، زمنيا .. بل هو وليد تراكمات حضارية وفكرية واجتماعية وسياسية معقدة . انه وليد قطاع زمني كامل بكل ما فيه من تراث موروث وحاضر معاش ، ومستقبل متمنى .. لكنه يتفجر في تلك اللحظة الانتقادية .

وان سيكولوجية الشاعر كإنسان ، لتعيش عملية مد وجزر حضاريا ، وان بوصلته تظل تتحرك قلقة ما دام ثمة ألم يكن في صلب وجدان العالم . ما دامت ثمة مجازر في الفيتنام مثلا يدبرها بتخطيط رهيب قادة البنتاغون .. وما دام ثمة (نفل) مزروع في قلب الشرق العربي اسمه اسرائيل .. وما دام ثمة اقزام متهرئة لتيجان لما تنزل تجلس على بركان احداث وتناقضات .. وما دام ثمة حكومات تسيطر بعقلية القرون الوسطى ... وما دام ثمة خطايا ترتكب تجاه الجنس البشري في كل مكان . ان مجمل هذه الظواهر المعقدة تجعل الشاعر الانسان يواجه اكثر من عدو ... ويقف على ارض المعركة ليناضل باكثر من جبهة .. ومن هنا فهو باعتقادي انسان مجاهد بحرفه وبكلماته .. ولا بد ان يعي هذه المسؤولية وبحكم ذلك يكون الشاعر حتى في حالات الانتقاد الوجداني غير بعيد عن مشاعر شعبه ووطنه وامته والانسانية .

ولكن هناك وجها اخر للقضية . فقد تنتاب الشاعر في خندق المعركة احاسيس نقية عن لوحة غزلية عاش خطوطها والوانها في الماضي فترسبت في اعماقه وتراكت

عليها الوان شتى من الحاضر وامال المستقبل .. فاغنتها واغنتت بالحياة وبالعديد من الزخوم ، وتحت تأثير عنف المعركة يحن الانسان احيانا لماضيه ، فليس اصعب واعنف على الجندي والمناضل من ضغوط الماضي ، ولوعة البعاد والفراق والمنفى ولا غرابة ان نجد العديد من المغترين يجسدون كثافة الحزن الاغترابي حتى في صيحات الالم والرفض والاحتجاج التي يطلقونها بين حين واخر . وانا لا اقول ان ذلك نقطة ضعف في الانسان بل صفة عميقة وسمه من سمات انسانيته .

ففي لحظة تداعي الشعور قد يصب الشاعر هذه الصور والذكريات الماضية مزيجة بتطلعاته ورؤاه فتنثال بدبذبات موسيقية متناعمة فتشكل تأججا عاطفيا قويا يتجسد في قصيدة حب الى وطنه او مدينته او زوجته او حبيبته او طفله .. او ربما الى نخلة جرداء في صحراء حياته الماضية .. انه يشواق حتى الى وحل مدينته .. اشتياق العاشق المتيم .. فهنا يخضع الشاعر للحظة انفجار هذه المشاعر ووصولها درجة الانتقاد الوجداني ، اذ ذلك لا يمكن ان يوقفه شعار او قرار بالتزام الكتابة عن موضوع لا يرتبط بمشاعره ارتباطا وثيقا وصادقا ..

لقد وقعت بيدي مرة ثلاث قصائد لثلاثة شعراء عراقيين مغترين : **السياب** : في قصيدة (في انتظار رسالة) .. التي بعثها الى زوجته وهو في مستشفيات لندن وقد نشرت في (شناسيل ابنة الجلبي) . و **بلند الحيدري** : في قصيدة (خطوات في الغربة) .. وهي موجهة من بعيد لزوجته ووطنه ايضا . و **البياتي** : في قصيدته (الموت في المنفى) .. المنشورة في مجلة (الهلال) المصرية .

وهي ثلاث قصائد ، كتبها الشعراء الثلاثة وهم خارج وطنهم (العراق) وثلاثتهم كانوا قد مروا بموقف معين ، احسوا تجاهه بشيء من الندم بشكل او باخر .. ومع ان جذورهم الفكرية واحدة ، وتطلعاتهم كانت واحدة ، ولوعة الفراق والمنفى فرقتهم ، مع تفاوت درجات الالم والمعاناة بين المرض الذي حول السياب الى كسيح .. والموت الوجداني الذي اطبق على البياتي ، حينذاك ، ومحاولة بلند لحيدري ، استعادة موقعه في ارضه ، وفي بيته ، اذ كان له في العراق ، حب وبيت .. ولكن الشعراء الثلاثة ، اعتصرتهم تجربة البعاد عن وطنهم ، وعبروا عنها كل حسب صياغته الخاصة .. حين داهمتهم مشاعر الغربة ووصلت حدا من الانتقاد لا يمكن بعده الا التعبير .. وهم باعتقادي ، لم يكتبوا ، او يسكبوا مشاعرهم ، باتفاق مسبق فيما بينهم ، او بتوجيه احد .. ولكن العامل الحاسم كان ضغط الظروف .. فهل يمكن لاحد ان يقول لهم كشعراء : لماذا كتبتم بهذا التوقيت ، وعن هذه المسألة بالذات ، في هذا الظرف المعين .. ؟

اعتقد انه من الجناية ان نحاسبهم ، عن التوقيت ، وطبيعة التناول .. ولكن ان نحاسبهم في شيء واحد فقط

وبشري ، فالمعرفة لا تستطيع أذن أن تتوافق (إلا الى حد يستحيل بلوغه) مع نشاطيه الفن الخلافة ، ومع الشيء الفني ، وذلك لأن هذه النشاطية تؤلف جزءا مكتملا من الكائن (الطبيعي والبشري) ومع اختلافهما ، لا تنفصلان ، وهذا يعني ان الاثر الفني يخاطب مباشرة ، وظيفة متميزة عن الذكاء والعقل ، وهذه الوظيفة هي (الحسائية) .

اذن فمسألة التعبير عن المرحلة ، تحتاج الى تنضيج في المشاعر ، واستيعاب معين لتفاصيل الحياة . . والتعبير عنها ، لا يعني التعبير بوسائل خالصة الوضوح والمباشرة والسطحية . . لكي لا يتهم الشاعر ، بأنه متخلف عن المرحلة . . من هنا يكون للشعر وظيفة اجتماعية ، ولا يصبح مجرد متعة ذهنية . . او مجرد واجهة لفضيلة لارضاء هذه المشاعر السياسية او تلك . فالشعر ، باعتقادي ، ليس بضاعة كمالية نزوق بها عالمنا . . صحيح ان الشعر يلون عالمنا بكل ما هو جميل ومرهف وانساني وينفتح على أفق أخضر . . ويصوغ لنا اغاني الحب والانسان والحياة . . لكنه في ذات الوقت ، يجاهد في معركة الانسان والحياة وحب البشر . . وبذلك تكمن فيه وظيفة اجتماعية حتى لو كان غزلا في معركة حامية الوطيس . . لان الشعر هو سلاح اخر في معركة الوجود . . والقيم . . فاما ان يكون الشاعر مغني قضية ما ، من خلال حس ما ، وعبر تكامل رؤية معينة ، ولخدمة هدفية انسانية ، غاية في النبل . . حتى من خلال غزله الخالص . . والا فان وقف في صف معاد للانسانية ، فهو يموت كإنسان . . ويموت كشاعر . .

شعر المعركة هو شعر انتقاد وجداني ، انتقاد وجدانات لا يجب ان تكون مرتجلة ، سطحية ، عادية في الرؤية ، والالهام . . بل قوية ، تصفع كل الذين يركنون الى الصمت والانزواء ، ويظهرون ، اوقات الرفاه ، كابطال تصفق لهم الجماهير . . والا فكيف يمكن للشاعر ان يكون انسانا ذا رسالة ؟ .

انا اعتقد ، ان ليس ثمة غزل (محض) او سياسة (محضة) . . فلا وجود لاي شيء (محض) خالص ، في الحياة . . لذا فحتى اغاني الغزل الانسانية الطابع ، هي اغاني معبرة بدرجة او اخرى عن شريحة اجتماعية ، او ظاهرة مجتمعية ، او حياتية ، معينة . . وهذه وتلك ، ترتبط وتتأثر بالسياسة ، حتما . . ولكن لا يعني هذا انها تخضع تماما لقرارات سياسية فقط . . اما ان يكتب الشاعر ، حماسا مفتعلا غير صادق ، ولم ينبع من مشاعر حقيقية ، فهذا موقف خداعي ، يجب ان يرفضه كل انسان . . فالشعر ليس مقالة سياسية ، بل انه اجمل ما يقال ، وليس كل ما يجب ان يقال . . وطبيعي ان الشاعر كإنسان ، وكفرد في المجتمع يرتبط بالظروف المجتمعية ارتباطا وثيقا ويعبر عنها . .

، . هو مدى خدمتهم لقضية الانسان العذب في وطنهم ، ومن خلال تجربتهم التي رسموها في قصائدهم الثلاث . . لكونهم عاصروا انساننا وعاشوا معاناته ، واستوعبوا جيدا ، بدرجات متفاوتة ، فقط ، لا بمنشأ القضية ، بل بتفاصيلها الجانبية .

اذن . . الصوت العالي ، هذا ، ارتفع عدة مرات في مراحل النضال السياسي والاجتماعي والثقافي مخاطبا جملة الشعراء : لماذا لم تعبروا عن القضية في المرحلة الثورية المعينة ؟ . . وي طرح سؤال اخر : هل عبر الادب عن الثورة . . ؟

هذه الاصوات ترتفع احيانا ومن النقاد بشكل خاص ، ولكن دون استيعاب كامل لجذور هذه القضايا ، ودون طرح معالجات واعية وحقيقية ، ومغيرة ، واحكام موضوعية ، للحياة . . وانا اقف ضد هذه الاصوات في علوها ، وغلوها في المحاسبة ، فاقول : ان الشاعر الانسان ، عصب ودم ومشاعر ، فهو يعيش ويتفاعل ، وقد لا تتكون لديه ملامح الصورة الكاملة ، في لحظتها ، بل تستقر في اعماقه وتحدث جرحا عميقا او اثرا معينا ، في حينه . وقد تثير صورة سريعة في المعركة ذكريات الماضي فتصل درجة لا يمكن لبركان مشاعر الانسان الشاعر الا ان يتفجر في تلك اللحظة . . فهل يعني ان هذا الشاعر (مع انه يحمل البندقية في كفه ، وكلماته في كفه اخر) اقول هل بالامكان اتهامه بالتخلف عن الثورة ، في التعبير . . والصياغة ، شكلا ومضمونا ؟ باعتقادي : كلا .

السياب في ملحمته (المومس العمياء) اثار ضجة معينة ، في مرحلة ثورية ملحة جدا ، و (المومس العمياء) كانت واحدة من اسباب خلافه مع الحزب الذي كان منتسبا له . . بسبب النقد الذي وجه له حينذاك ولكن الفن يختلف عن المعرفة . . وهو من اختصاص نشاطية اخرى ، ان يدع الفنان ، او ان يحس (جماليا) لا يعني التفكير واعمال الذهن ، رغم ان افكارا وعمليات ذهنية بوسعها ان تتدخل . . ومن هذه الناحية يستغني الفن والفنان عن المبركات او يجتازها دون التوقف عندها . (فالأثر الفني) كما يقول هنري لوفافر (يضع نفسه امام المعرفة بوصفه حدثا واقعيا ينبغي معرفته ، فالفكر يجهد لالتقاط هذا الحدث الواقعي ، لفهمه ، لتفسيره ، هذا الحدث الصوري ، الموسيقي ، الادبي . . الخ .) . انسه يواجه (منتوجا) غنيا بالنشاطية الانسانية غنى خاصا ، تتحد فيه قطعة من الطبيعة المحسوسة ، ونتيجة من نتائج العمل الانساني . . وي طرح الاثر الفني على المعرفة سلسلة من المسائل والقضايا شأنه في ذلك شأن كل حقيقة واقعية ، وتحليل محتواه انما هو غير محدود ، اما فيما يختص بتفسيره ، يعني معرفته المكتملة النامة الكاملة ، لكل شيء واقعي ، والمعرفة النامة الكاملة ، من شأنها ان تستنفد هذا الشيء الذي هو - في آن واحد - طبيعي

الحزن الذي لم يموت

أغرقنا الصمت هنا وأغرق البيوت ،
وكل شيء حولنا يموت ،
الثمر الرطب وفئران الحديقة الجياع ،
ماتت . ومات الامل الخداع ،
نحن نسير في خضم الحزن كالرياح
وكلنا نلهج ربنا ضاعف لنا الجراح
بارك لنا الحزن الذي وهبته لنا
يا سعدنا .
لو زدتنا .
لو جدت بالطر ،
لو امطرت سماك ،
فشجر الصبور والاراك ،
تساقطت اوراقها . وجفت الزيوت ،
ومات الف طائر . والف عنكبوت
ما ذنبها تموت ،
تصمت في انكسار ،
في زحمة الفصول . والنهار
يظل جاهما بلا ضياء . والنجوم
اعمى بلا دليل ،
في كف عفريت تعوم ،
وهذه الوديان والتخوم ،
وشاحب الشجر . . .
أغرقها الصمت الطويل ،
وحزننا الثقيل ،
ينتظر الموت . وليته يموت ،

احمد الماخذي

المفوضية اليمنية باديس أبابا

ـ فالشعر يجب أن يحتوي على نشاطية جمالية
تميز الخصائص الاصيله للشاعر ، وللاثر الفني ، لان كل
اثر فني لا يحلو من شيء من المعرفة ، لتمتد النشاطية
الجمالية والمعرفة جدورها في انقوى المنتجه وفي التمرس
العملي (الاجتماعي) ، وفي انحياء نفسها ، فسي لحظه
معينه . .

ففي العراق يقف شاعران وطنيان كبيران في مقدمة
شعراء المعركة . . أحدهما يصوغ قصائده بجزالة وغنى
شكلا ومضمونا ، لذا يتسم شعره بالقوة والتكنيك والثورية
المبدعة . . ومع انه كلاسيكي في الصياغات الشكلية ، وفي
البناء التركيبي للقصيدة ، لكنه حديث ، وعصري فسي
تناوله وتامله وتعبيره . .

اما الاخر : فهو معاصر ، وكلاسيكي ، وثوري ايضا
. . ولكن مضامين قصائده تأخذ شكلا يفتقد الى التكنيك
الفني . . والقوة والجزالة اللفظية ، في البناء . . لذا فهي
تبدو اقرب الى المقالات السياسية ، ولكن صيغت وفق
بحور الخليل . . صحيح ان قصائده اكثر بساطة ، واقرب
للفهم ، لكنها في ذات الوقت بعيدة عن قوة وجزالة الشاعر
الاول مع ان الاثنين ينهلان من منبع واحد - تقريبا ،
ويعبران عن قضية واحدة (من حيث الاطار العام) .
والسبب باعتقادي ليس ثقافة الشاعر وحدها ، وطريقة
تفكيره ، وصياغاته ، بل ان الاول يعتمد تأملا اعمق ،
ورؤية اجزل ، وامتدادا في التاريخ ، ابعد . . ويعتمد
اسلوب التراحم الوجداني لمشاعره ، حتى الانتقاد ، في
حين يصوغ لآخر قصيدته بسرعة الحدث دون ان تمر
عبر مخاض حقيقي ، ومرحلة تعمق مشاعري غزير . .
لتأخذ ابعادها الناضجة نفسيا .

ان الكلمات الطيبة في هديتها ومضمونها لا تكفي
لان تكون شعرا . . كذلك الانسان الطيب لا يكفي ان يكون
مجاهدا . .

وان التكتيف الفني لصياغة الكلمات من خلال
الانهمار المشاعري ، في درجة من الفهم المعقول لا الغموض
المبهم . . هو محور البناء التكنيكي للقصيدة المغناة . . .
ومع اني اؤكد بان النشاطية الجمالية هي وليدة الشاعر
نفسه . . في حالة الانتقاد ، وفي اللحظة الزمنية الشعاعية
مع ان الشعر المرتجل ليس شعرا طويل العمر ، لانه لا
يحمل مؤهلات العيش طويلا ولا التأثير بعيدا في النفس
البشرية . . ولكن النشاطية الجمالية هي في ذات الوقت
اكتساب مراسي من العمل المثابر لذا فالانتهامات الموجهة
للشاعر الهادف يجب ان لا تنصب في : لماذا لا تكتب شعرا
ثوريا - دائما - معبرا عن اللحظة الزمنية الآنية في الحال؟
بل : لماذا لا تكتب شعرا انسانيا يخدم قضية الحرف
المقدس والانسان والحياة . . حتى في لحظة الانتقاد
الوجداني ؟ .

محمد الجزائري

بغداد